

المثنوي

فماذا نعمل بعد يا أقوام الشرق

للشاعر الإسلامي الكبير والمفكر العظيم محمد إقبال

دراسة وتحليل

بقلم

الدكتور ساجد الرحمن الصديقي *

كان إقبال عالماً كبيراً ذا عبقرية كبيرة، وإنه قد درس العلوم الإسلامية درساً عميقاً، ودرس حاضر المسلمين وتاريخهم الطويل وتأثر تأثيراً كبيراً برقي المسلمين رقياً عظيماً سريعاً لم يحصل لأحد من الأقوام والملل من قبل في مثل هذه المدة القليلة، ثم إنه رأى زوال المسلمين وانحطاطهم وتقهرهم إلى الوراء.

وكان إقبال ناقدًا بصيراً بالأمور الراهنة في العالم فأدركها بكنهها وعرفها على وجهها. وقد تفرس إقبال شعوب الغرب وتبلورهم ورآهم على ما كانوا عليه من الجد والعمل وما يوجد فيهم من الخواء في الجانب الروحي وما حلّ بهم من فقدان الوجدان الروحي والشعور الأخلاقي من الفساد الكبير والبوار المحيط.

وكان ذلك الفيلسوف العظيم ذا حساسية مرهفة فجعلته يفكر في أسباب ضعف المسلمين وانحطاطهم الخلقي والروحي وضعف قوتهم المادية ثم رأى إلى

* - مشرف قسم التخصص في الدعوة والإرشاد بجامعة دار العلوم كراتشي.

نهضة الغرب وتطورهم تطورا عظيما وبحث في العوامل والأسباب التي أدت إلى هذه النهضة الرفيعة.

وقد أدى هذا الفكر العميق وهذا النظر الدقيق شاعرنا العظيم إلى فلسفة عظيمة خاصة به. وتلك الفلسفة إنما تدور حول نقطة مهمة وهي إحياء الإنسانية بأسرها فكريا وروحيا وأخلاقيا وجمع شملها على كلمة واحدة. ورأى شاعرنا العبقري أن هذا الإحياء إنما ينطوي على الحب الشامل لجميع الأسرة الإنسانية وأن تكون المودة الإنسانية سائرة في الناس أجمعين لكي يمحي جميع الفروق وسائر الامتيازات القائمة على اختلاف الملل والنحل والأوطان. ولما كان للإسلام مزايا وخصائص لا توجد في غيره من الأديان والمذاهب والأنظمة الوضعية، من أن الإسلام دين كامل لا ينقصه أمر يحتاج إليه الإنسان، وشامل لجميع حاجات الإنسانية الروحية والجسدية، وأنه دين يراعي فطرة الإنسان ويهتم بنزعاته الطبيعية وميوله النفسية، وأنه قد دعا إلى الأخوة الإنسانية فيرى الإنسانية كلها كأسرة واحدة بدون أي تمييز بين إنسان وإنسان على أساس اللون والنسل والوطن، فيرى إقبال أن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يعد سبباً لنجاة الإنسانية بأسرها فتنجو من الهلاك والدمار ومما أصابها من الفساد الخلقي والإتحلال والقتال والتطاحن في الحروب.

ورأى إقبال أن من جملة الأسباب الكثيرة المتنوعة التي تسببت في ضعف المسلمين أن المسلمين فقدوا ذلك الحب العميق لله ولرسوله الذي تمكن في قلوب السلف الصالح مع الإيمان بالله ورسوله إيمانا كاملاً لا يعتريه شك ولا يشوبه ريب. فبالإيمان الخالص وبالحب العميق وصلت الأمة الإسلامية إلى ذروة الكمال وبلغت قمة المجد والرفعة. وذلك لأن نشأة الأمم ورفقيها إنما هي منوطة بالحب بمقاصد حياتها والعشق للأهداف التي تريد أن تحصلها. يقول شاعرنا العظيم:

إنما تبقى الأمم بالحب

والناس يسمون هذا الحب جنونا

لم يوجد تحت السماء الزرقاء قوم عملوا عملاً كبيراً

بدون الحب البالغ إلى حد الجنون

ولما كانت الأمة الإسلامية هي الحاملة للواء الدين الإسلامي الذي يقدم الحلول المناسبة لجميع المشاكل التي تواجهها الإنسانية اليوم، فلها أن تقوم لقيادتها لتسير بها إلى الفوز والفلاح ولترشدتها إلى الهدى والرشاد. ولكنه من الواجب حينئذ أن يهتم المسلمون بأمر دينهم اهتماماً بليغاً وبأن يفهموا هذا الدين فهماً عميقاً وأن يعملوا بجميع ما جاء به من الأوامر والأحكام ولذلك لينموا الحب الخالص لله ولرسوله في قلوبهم، لأن هذا الحب يكون لهم رصيذاً كبيراً من القوة والحيوية والجد والنشاط في الحركة والعمل.

والعصر الذي يعيش فيه المسلمون هو عصر المادية البحتة التي تغلبت على عقول الناس وأفكارهم حتى إنهم لووا أعناقهم عن الجانب الروحي الذي ليس للإنسان بد من أن يراعيه ويهتم به أي اهتمام.

ولذلك يقول إقبال في بداية هذا المثنوي:

أعد جيوشاً جديدة من ولاية الحب

لأن الحرم في خطر من بغي العقل

ولهذا المثنوي الذي نقوم بدراسته الآن قصة، نحب أن نحكيها لتتضح لنا مفاهيم هذا المثنوي وتنجلي لنا الأغراض والمقاصد التي نظمها الشاعر لأجلها.

قد افتتح إقبال هذا المثنوي في سنة ١٩١١م. وذلك أن والده اقترح عليه أن يكتب قصيدة طويلة على طراز المثنوي الذي كتبه الصوفي الشهير بو علي

المثنوي

قلندر. فشرع إقبال في كتابة هذه المنظومة ولكنه لم يكملها في ذلك الوقت بل استغرق هذا المثنوي وقتاً طويلاً.

وكشف الشاعر العظيم اللثام عن بعض من الأسباب التي أدت إلى نظم هذا المثنوي فيقول: إنه كان نائماً في ليلة من الليالي في الطابق الأعلى من بيته، واستيقظ بعد قليل ووجد في نفسه ميلاً إلى نظم الأبيات، فنزل إلى الطابق السفلي وجلس أمام المصباح وكتب الأبيات التي أراد أن يكتبها. فلما فرغ ونهض ليذهب إلى الطابق الأعلى للاستراحة، رأى أن شيخاً كبير السن دخل عليه وجعل يقول له في لهجة صارمة: "أعد خمسمائة رجل". وغاب ذلك الرجل من فوره واستغرب إقبال هذا الأمر وتعجب وخرج من بيته ليعرف عن أمر هذا الرجل فلم يجد له خبراً ولا أثراً. فرجع إلى فراشه ونام، فلما استيقظ في صباح ذلك اليوم تحير في هذا الأمر وظن أنه رأى ذلك في منامه ولكن الأبيات التي كتبها في الطابق الأسفل كانت موضوعة في نفس المكان الذي كتبها فيه، وأثر القنديل الذي كتب في ضوئه كان لا يزال واضحاً في مكانه. فحدث إقبال بهذا الحادث والده فقال: "لو أنك لا تستطيع أن تعد خمسمائة رجل فمن الممكن أن تكتب قصيدة تشتمل على خمسمائة بيت وتحتوي على نصح وإرشاد ينفع الناس." فكتب إقبال هذا المثنوي الذي يشتمل على أكثر من خمسمائة بيت، وافتتح بالبيت الذي ذكرناه من قبل.

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا المثنوي - فما ذا نعمل بعد يا أقوام الشرق - هو آخر ما قاله العلامة الدكتور محمد إقبال لأنه طبع قبل وفاته بسنتين فقط. ولأجل ذلك يشتمل على أفكاره الناضجة في أواخر عمره فهو خلاصة ما انتهى إليه المفكر الإسلامي في فلسفته وآرائه.

وإن هذا المثنوي يحتوي على موضوعات عديدة، نذكرها هنا ونبحث فيما تشتمل عليه هذه الموضوعات من المعاني والمفاهيم:

كلمة إلى القارئ

وإنه من البديع أن شاعرنا الجليل بدأ هذا المتنوي بخطابه للقاري فيقول:

تفهم أن العقل كامل فوق الحساب والميزان

فإن فكر العبد المؤمن القويم هو مقياس صالح للعقل

إن العقل الإنساني محدود بالحواس الخمس ومقيد بهذا العالم المادي الذي يحسه ويراه، وأنه لا يستطيع أن يرى من وراءها. فللعقل في نظر إقبال ثلاث درجات:

الدرجة الأولى:

العقل المادي أو العقل الحيواني الذي يتكفل بالحاجات الغريزية من الطعام والشراب وحفظ النفس والنسل، ويشترك الإنسان مع الحيوان في هذه الدرجة.

الدرجة الثانية:

العقل الإنساني الذي يقوم به الإنسان بجميع الأمور التي تتعلق بالحضارة والتمدن. والدرجة الثالثة: العقل الروحاني، وهو الذي يحصل للإنسان عن طريق الإيمان بالله والعمل بما يحبه ويرضاه. وهذا العقل الرباني هو البصيرة التي تنور القلب وتزكي الروح وتطهر الوجود وترشده إلى طريق الحق والرشاد.

وذلك لأن الإنسان مركب من المادة والروح، وإن له حاجات روحية كما إن له حاجات جسدية وضروريات جثمانية. أما حاجاته الجسدية فيكفي للعقل أن يقوم بها ويشبعها كلما ظهرت ولكن العقل لا يجد سبيلا إلى إشباع الحاجات الإنسانية الروحية. فالحاجة ماسة إلى شيء يفوق العقل ويمتاز به، ألا وهو الوحي الرباني الذي ظهر في صورته الخالدة الباقية في الشريعة الإسلامية التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم. وإن المسلم الصادق مع التزامه بالأحكام الشرعية لا

بد له أن يحب الله ورسوله؛ لأن الحب الصادق لله ولرسوله ينشئ صورة صادقة للإخلاص والقيام بما يجب عليه في حياته الفردية والاجتماعية، ولذلك يفوق الحب العقل ويمتاز عليه. لأن الحب كثيراً ما يعمل عملاً يدهش العقل به كما أن نبي الله إبراهيم عليه السلام بلغ من اليقين بالله درجة لا تسامى ومن الحب مبلغاً أن طرح به في النار فدخل فيها بدون تردد أو نكوص. يقول إقبال:

إن الحبيب في شدة حبه خاض في لجة من النار
والعقل لا يزال يقف حائراً على هذه الجرأة العظيمة

إن العقلية الجديدة التي ظهرت في هذا العصر إنما هي مبنية على المادية البحتة، والمتفقون من المسلمين قد تأثروا بها تأثراً كبيراً، ولكن إقبال يرى أنه ليس من الأمر بد إلا أن يكون العقل تابعاً للوحي الذي أنزله الله على رسوله، وذلك لأن العقل المادي البحت البعيد عن هداية الله وتوفيقه يضل صاحبه فيتبع هواه بغير هدى من الله. أما العقل المستنير بالوحي الإلهي هو الذي ينير الطريق ويرشد الإنسان إلى الصلاح والفلاح. وقد أحس إقبال بالخطر العظيم على دين المسلمين وثقافتهم من العقلية المادية الخالصة، وأراد أن يهيئ جيشاً جديداً مكوناً من الحب ليقابل هذا الخطر. ورأى أن الناس لا يعرفون شيئاً عن ماهية الحب ومدى قوته ورفعته، مع إن الحب رفيع في شأنه عظيم في قدره ولا بد للعقل أن يكون مستوراً في لباس الحب الرائع الجميل. ويرى إقبال نفسه أنه قد وصل بالسلوك على طريق الحب، إلى مقام رفيع يطوف العقل حوله ويتعجب منه.

والحب في فكر إقبال هو الإيمان بالله وبرسوله إيماناً لا يشوبه شك ولا يعتريه ريب، والعمل بما جاء به الرسول ﷺ من الأعمال والأخلاق مع الحب الشديد لله ورسوله. وذلك لأن الحب يسهل الطريق حتى يكون العمل بما يقتضيه الدين الإسلامي أمراً طبيعياً عند المؤمن الكامل كما يدل عليه القرآن والسنة.

المتنوي

فمقياس العقل وميزانه هو الوحي الإلهي، فلا يفهم أحد أن العقل يفوق كل شيء ولا يوجد له مقياس يقاس به أو ميزان يوزن فيه. لا! إنه ليس كذلك، بل إن فكر المؤمن القويم الذي استنار قلبه هو المقياس الصالح لوزن العقل والتعرف على قيمته.

تمهيد

وبعد خطابه للقاري وبيانه أن الحب أسمى وأعلى درجة من العقل وأنه يفوق ويمتاز عليه، افتتح إقبال هذه الأبيات بالثناء الجميل على الرومي، فيقول إن قلب الرومي _ وهو مرشدي في طريق السلوك _ قد استنار بمعرفة الحق وهو قائد قافلة الحب والشوق، وإن مكانته في معرفته الحق عالية كبيرة، وذلك لأن صدره متورّ بنور القرآن، حتى إن كأس جمشيد^١ لا يماثل نور قلبه في صفائه. والرومي الصادق يُنشد نشيده بالناي ويسمع الشاعر نداء الحق ويحس في أعماق قلبه ما تحتوي عليه تلك الأناشيد من المعاني. وقد افتتح الرومي ديوانه بهذا البيت:

استمعوا أيها الناس! إلى هذا الناي الذي يحدثكم بحديث
وهو يشكو ويحن إلى أصله لما حصل له من الفراق والبعد عنه

والرمز في هذا البيت أن الإنسان مخلوق خلقه الله تعالى من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فمن أجل هذه النفخة الربانية التي نفخها الله بين جنبيه يتجه

^١ - جمشيد، بطل إيران الأسطوري، وكان من كبار الملوك، يُروى أنه كان عنده قصعة مجلاة يرى فيها جنوده المحاربة في الثغور. وقد شبه إقبال قلب الرومي بالمرأة الصافية المجلاة التي يرى فيها ما لا يراه غيره.

الإنسان ويستكن إليه ويناجيه آناء الليل وأطراف النهار، وهذه هي الفطرة التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، فصار من الواجب أن يكون العبد على صلة قوية بخالقه وأن يلجأ إليه بروحه وقلبه ووجوده ويحن إليه ويبكي على البعد منه كما يبكي الناي ويحن إلى أصله. وذلك لأن البعد عن الخالق ينشأ في روح الإنسان قروحاً لا تندمل ولو ملك الدنيا بحذافيرها.

ولما توجه فكر إقبال إلى مرشده الرومي وجده يخاطبه ويقول له:

يا إقبال! إنك قد عرفت أسرار الحياة وفهمتها فهماً عميقاً وقد مكثت في الغرب أياماً غير قليل، فعرفت العلوم الجديدة ومارست الثقافة العصرية وكشفت اللثام عن وجهها فعرفت على حقيقتها كما أنت على معرفة تامة بالعلوم القديمة. وقد منحت بموهبة كبيرة من الحب وإنه قد أعطي لك ميلاً إلى الوجد والشوق عظيماً، فملك الأوصاف التي جعلتك أهلاً لإيقاظ الأمم الشرقية من سباتها العميق. فقم يا إقبال مثل إبراهيم الخليل لتنقية الأفكار الفاسدة التي تسربت إلى حياة المسلمين. فاقحم في هذه النار المتأججة كما دخلها الخليل وحطم أصنام هذا العصر كما حطم الخليل الأصنام في عصره.

ثم إن الرومي يخاطب هذا الشاعر العبقرى ويقول له:

لا مثيل لك يا إقبال في معرفتك بأسرار الغرب

فلم يدخل أحد مثلاً دخلت في نار الغرب

وإن الرومي - وهو في عالم الأرواح - قد عرف مكانة الشاعر الرفيعة وأدرك أنه وحيد في عصره في معرفته بأسرار الحياة وفهمها فهماً عميقاً فيخاطبه ويقول له: إنك يا إقبال قد مكثت في الغرب أياماً غير قليل، فعرفت العلوم الجديدة ومارست بالثقافة العصرية كما أنت على معرفة تامة بالعلوم الإسلامية المتنوعة. وقد أعطيت من الحب شوقاً جديداً وميلاً إليه عظيماً، فملك الأوصاف التي جعلتك

أهلاً لإيقاظ الأمم الشرقية من سباتها العميق. فقم يا إقبال مثل إبراهيم الخليل لتنقية الأفكار الفاسدة التي تسربت إلى حياة المسلمين. فادخل في هذه النار كما دخلها الخليل وحطم أصنام هذا العصر كما حطمها الخليل.

وبعد هذا يكشف الرومي لهذا الشاعر العظيم أسراراً فيقول ناصحاً له بأن العاشق المحب يحتفظ في وجوده أسراراً، لا يجوز له أن يفشوا بها عند العامة الذين لا هم لهم غير الدنيا، فإنهم ليسوا بأهل لمعرفة هذه الحقائق. إنه إذا لم يجد المحب من يبوح إليه بسرّه فعليه أن يكتمه في قلبه ولا يظهره على أحد، لأنه لو ذهب الذئب بيوسف لكان أحسن من أن يشتريه رجل لا يعرف قدره وقيّمته.

هذا وإن للحب مكانة رفيعة عند أهل التصوف وإنهم يريدون به حباً لله وحباً رسوله ﷺ، وربما يظهر هذا الحب العميق عندهم في حبهم للناس أجمعين، وذلك لأن الخلق عيال الله، والحب للمخلوق دليل على حب الخالق. ولكن أهل الدنيا أكثرهم لا يعرفون حقائق الحب فكشف هذه الأسرار عليهم يماثل الأذان الذي يصل إلى آذان الكافرين.

خطاب للشمس

إن المشرق لم يزل مكان الحضارة ومحل الثقافات الاجتماعية والدينية في التاريخ الإنساني كله، فقد نشأت الحضارة أول ما نشأت في المشرق وتطورت وتلاّلت وبزغت شمسها حتى استنار العالم كله. وإن الشاعر الإسلامي يرجو ويتمنى نهضة الأقوام الشرقية ويتمنى رقيها. وهذا التمني وذلك الرجاء جعله يخاطب الشمس ويدعو لها ضياءً جديداً لكي يتنور الشرق من نورها الجديد، وأن يكون المشرق محل الحضارة الجديدة التي تمثل الجانب الروحي الذي يحتاج إليه الإنسان، كما تمثل الجانب المادي في حياته، فيحلم الشاعر أن نهار أقوام الشرق سيضيء قريباً مثل ضوء الشمس فإذا بزغت الشمس ذهب الظلام واستنار كل

وما أشد ما يتمنى إقبال الرفعة للأمة المسلمة وما أكثر ما يحلم أنه كما يستنير العالم كله من نور الشمس، تستنير به الأمة المسلمة بأسرها، فيقول:

فهنيئاً بطلوعك لعلك تأتين إليّ بصبح جديد
فتصير كل شجرة في استنارتها مثل شجر سيناء

فهنيئاً لك أيتها الشمس المنيرة! أرجو أن يحصل لي من ضيائك بنصيب، فيذهب ظلام الليل بذلك الضياء، لكي يتنور قلبي بهذا النور ويطلع عليّ من ذلك الضياء صبح جديد، ويستضيء بانبثاق ذلك الفجر كل مكان وتستنير كل شجرة كما استنارت الشجرة التي نبتت في سيناء، حتى أستطيع أن أنور الشرق كله وأحرره من الأفكار الفاسدة التي استولت عليه بمر الأيام وكر الدهور.

الحكمة الكليمية

الحكمة الكليمية عنوان بليغ يحتاج إلى توضيح معناه. إن كلمة 'الحكمة' مأخوذة من القرآن الكريم فقد وردت الكلمة في كتاب الله تعالى مرّات عديدة، فقد قال الله تعالى وهو يخاطب نبيه محمداً، ﷺ:

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾^١

فأطلق الله سبحانه كلمة الحكمة على جميع ما أوحى إلي رسوله من الحكم والأحكام وما اشتملت عليه السنة النبوية من العلوم والمعارف. وأما كلمة 'الكليمية' فهي مأخوذة من الكليم، والكليم هو موسى عليه السلام كما قال الله

^١- سورة الإسراء آية ٣٩.

تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^١، فالمراد من الحكمة الكليمية جميع العلوم والمعارف التي اشتمل عليها كلام نبينا محمد ﷺ. وكان من الممكن أن يكون العنوان 'الحكمة النبوية' وهو المقصود هنا، ولكن لما كان إقبال يرى أن المؤمن الكامل هو الذي يملك القوة المادية مع قوته الإيمانية، والكليمية تشير إلى أن موسى، عليه السلام، مع نبوته ورسالته وكلامه مع ربه، قام مهاجماً فرعون وسيطرته الظالمة وعدوانه الكبير، فغلب عليه بما أراه الله من الدلائل القوية والبراهين القاطعة وبما أعطاه الله من القوة، وفاز بإخراج بني إسرائيل من هذه الأرض الظالم أهلها.

وإن هذا الجزء من المتنوي يحتوي على مديح الرسول ﷺ فذكر الشاعر الإسلامي بعضاً من خصائصه ﷺ وأوضح كذلك بعضاً من المزايا التي امتاز بها الدين الإسلامي، ليكون منهاجاً قوياً للناس أجمعين إلى يوم القيامة. وما أشد ما يحتاج إليه المسلم في تكوين حياته من جديد وتأسيسها على أساس متين. يقول الشاعر الكبير:

إن صحبة الرسول كوَّنت من الأميين أمة عظيمة

ووهبت لأيام صوتاً جديداً

إنه علّم الناس أن الموجود هو الله وحده وأن كل شيء غيره فان لا محالة

فلم يبق للعاقل مجال إلا أن يعبد الله وحده

إن الرسول العظيم ﷺ مكث بين أصحابه المؤمنين الصادقين مدة ثلاث وعشرين سنة، ورباهم تربية لا مثيل لها، فتغيرت طباعهم وانقلبت عقليتهم وتطورت أخلاقهم وعاداتهم وتبدلت أحوالهم غير الحال التي كانوا عليها من قبل، فتكونت منهم أمة عظيمة، تغيرت الدنيا بأسرها بعد ظهورها وتطور العالم كله مما

^١- سورة النساء آية ١٦٤.

لها من تأثير عميق.

وما الذي أحدث هذا الحادث العظيم؟ هو تعليم الرسول ﷺ أصحابه أنه لا إله إلا الله وحده وأن كل شيء غيره فان لا محالة، وكل شيء هالك إلا وجهه! وهو الذي خلق الكون وخلق الإنسان، فهو الخالق وهو المالك، وهو المتصرف في الأمور كيف يشاء، وإذا كان هو كذلك، والإنسان ما هو إلا عبد له، فقير إليه، متوكل عليه في حياته ورزقه وموته، فليس له أن يعبد إلا إياه، وهو المعبود بحق لا يوجد أحد سواه، وهو الموجود حقاً فلا موجود إلا هو. وأما هذا الكون وما فيه من الأشياء فكلها حادث فان لا يبقى، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، فوجب أن يكون المعبود هو الله وأن يكون الموجود حقاً هو الله.

وإن المسلم يجب عليه بعد الإيمان بالله وبرسوله أن يهتدي بهدي الرسول ﷺ ويتأسى بأسوته الكريمة، في كل أمر من أمور حياته، ولا يخالفه في أمر مهما كان بسيطاً، ولا يتبع أحداً في حكمه المخالف للكتاب والسنة، سواء صدر ذلك الحكم من حاكم جائر أو أمر مستبد أو مقتدر يملك الشوكة والسلطان. لأن غيرة المؤمن على الحق لا تسمح له إلا أن يتبعه.

يقول الشاعر العظيم:

أيها المؤمن ! حطّم سحر هذا المعبد القديم

بهاتين الكلمتين: "ربي الأعلى"

إذا فهمت أيها المؤمن هذه الحقائق، فقم بإذن الله واركك كل شيء غير الله تعالى واقلع من قلبك حب الدنيا مؤذناً في الآفاق "ربي الأعلى!!" لأن قلب المؤمن لا يسع أن يتمكن فيه حب الدنيا، بل لا يزال قلبه فارغاً لحب الله ورسوله، فإذا تفرغ قلبه لحب الله ورسوله صار حراً، ويصير رضاه تابعاً لرضاء الله تعالى. وإذا أردت أيها المؤمن الفقر فأول أمر تحتاج إليها هو عدم الخوف من قلة المال لأن

المال ظل زائل، والعافية إنما تجدها في الحال لا في المال. والحال هو الكيفية التي يرضى فيها المؤمن برضاء الله تعالى، وإنما يحصل ذلك إذا كان المؤمن متبعاً لجميع أوامر الشريعة، ويصير عنده الاتباع لكل ما أمر به الله ورسوله أمراً طبيعياً، أو مثل أمر طبيعي، ويصير هواه تبعاً لكل ما جاء به الرسول ﷺ. فاختر لنفسك صدق المقال وإخلاص القلب والدعاء والتضرع إلى الله. قم بطواف نفسك، و لا تقم بطواف بيوت الأمراء. إن الغراب هو الذي يأكل مطروحات الناس، أما الشاهين^١ فيصيد لنفسه ولا يأكل من فريسة غيره. الطائر الذي يعيش في البستان، لا في قفص الصائد، هو الذي يبني عشه حيثما شاء، فلا تكن أنت أقل حظاً من هذا الطائر الحر الذي يطير بجناحيه حيث ما شاء.

والسالك في طريق الحق إنما يحظى أولاً من الجلال

ثم ينتهي في مسيره إلى شأن الجمال

والحقيقة هي أن السالك في طريق الحق إنما يحظى من الجلال قبل أن يكون له نصيب من الجمال، لأنه إنما بدأ بكلمة "لا" وهذه الكلمة هي كلمة الجلال، لأنها تنفي كل شيء غير الحق، وتترك كل وجود غير وجود الحق، فإنه لا موجود إلا هو، ثم ينتهي السالك في سيره إلى شأن الجمال، وهو "إلا الله" فالاعتراف بوجود الحق والإقرار بالخالق والإيمان بالله هو الجمال! لا جمال فوقه! فالمؤمن السائر في طريقه إلى الحق من الجلال إلى الجمال، هو الذي يلبسه الله لباس

^١ - الشاهين هو طائر كبير قوي الجناحين شديد البأس. كثيراً ما يلمح الشاعر الإسلامي الكبير - إقبال - إلى الشاهين ويرمز به إلى المؤمن الصادق الذي يجتمع فيه خصائص الإيمان. وذلك لأنه توجد في الشاهين صفات تشبه تماماً صفات المسلم الحق؛ فهو يطير عالياً في الفضاء الواسع، ولا يأكل طعاماً تركه غيره، ولا يدخر طعامه لغد، وربما لا يجد شيئاً فلا يبالي ولا يهتم به، ويسكن بعيداً في شواهدق الجبال. وهذه كلها صفات الفقير عند إقبال. وقد نظم الشاعر قصيدة كاملة ذكر فيها صفات الشاهين وأشار إلى المشابهة بينه وبين أوصاف الفقير (جناح جبريل).

الوجود. أما الأشياء التي نراها في الكون فليس لها وجود إنما لها النمو والظهور فقط. والمؤمن إذا أدرك سر "لا إله" ومُنح له نصيبٌ من الحب الإلهي لكان الكون مسخراً له حتى الشمس والقمر. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ۚ ١ 》.

الحكمة الفرعونية

الفيلسوف الكبير والشاعر العظيم يخاطب القارئ المسلم ويقول:

إنني قد أوضحت لك الحكمة الكليمية، والآن أريد أن أوضح لك الحكمة الفرعونية. والحكمة الفرعونية تعبير لطيف وهي تشير إلى تلك العقلية المادية البحتة التي تعتمد على الأسباب المادية فحسب، وتتكلم على متاع الدنيا ونعيمها لا غير، فتنبو عن كل خير وتبعد كل البعد عن جميع القيم الأخلاقية. والمجتمع الذي تسوده هذه الحكمة سرعان ما يتحول إلى مجتمع قاس، يفرّ فيه المرء عن أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويصير لكل منهم شأن يغنيه؛ وذلك لأنه لا يبقى للناس فيه هم غير السعي وراء المال الذي يحبونه حبا جماً، ويجمعونه ويعدّدونه ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، فيخيل إليهم أن المال هو القدر الوحيد الذي يتضمن ببقائهم وقيامهم في ذلك المجتمع الدنس. وإنه من خصائص هذا المجتمع المادي أنه يتغلب عليه قادة يقودون الشعب إلى الدمار والهلاك، وساسة يسوسون الناس بأنواع شتى من المكر وألوان من الخداع وأجناس من الحيل شتى ذوات فنون. فسياستهم تكون دائماً منقطعة الصلة عن جميع الأقدار الإنسانية والروحانية.

مبعدون عن الحق كأنهم موتى لا حياة بهم

ولا يعرفون أنهم فقدوا حياتهم

١- سورة الجاثية الآية ١٣.

كان إقبال مفكراً عظيماً وفيلسوفاً كبيراً، يرى أموراً لا يراه غيره، ويعبر عن أمور لا يهتم بها الناس بعبارات دقيقة، وأساليب بديعة، ويفسرهما تفسيراً رائعاً جميلاً، فيبدو كلامه في قمة من الروعة والجمال. وكان إقبال غزير العلم وأوسع الإطلاع على العلوم القديمة والجديدة وعلى ما نقل في تراثنا من المعارف الصوفية، ومع هذا وذاك قد استفاد في أفكاره كثيراً من القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد أكثر القرآن الكريم ذكر الأمم القديمة، فذكر رشدكم وهديهم إلى سبيل الحق كما ذكر غوايتهم وضلالهم، فأثنى على أوليها وذم آخرها. فنظم الشاعر في 'الحكمة الفرعونية' الأوصاف والخصائص التي تختارها الأمم الغاوية المنهمكة في التمتع بمتاع الدنيا والمنغمسة في اللذات والشهوات. فهذه هي الصورة الرائعة البديعة التي صورها ووضعها شاعرنا العظيم في أشعاره البديعة.

إن هذه الحكمة الفرعونية الباطلة تتولد منها نتائج خطيرة تدمر كل خير موجود في المجتمع الإنساني، فتفسد حياة الإنسان بأسرها، من جراء ما يظهر منها من الشر والفساد، حتى يسري الفساد في عروق المجتمع مسرى الدم في جسم الإنسان، فيختل المجتمع ويصير فريسة للفوضى والاضطرابات. وأعظم ما يقع الفساد إنما يقع في ناحية المناهج التعليمية والأحوال الدينية والأنظمة المالية، ولا يخفى ما لهذه الجوانب من الأهمية البالغة في تكوين المجتمع وتأسيسه، فإذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسد المجتمع. فننظم المناهج التعليمية تحت سيادة القائمين بهذا المجتمع على منهج يوافق أهواءهم، فيتخرج منها عملاء يعملون في صالحهم، ولكنهم محرومون عن كل فكر حرّ وقلب سليم. والعلماء في نظامهم يتكلمون بحديث جذاب لعامة الناس ويشرحون لهم أمر دينهم موافقاً لأهوائهم، فيفسد حديثهم عقولهم ويزيدهم في الاختلاف على ما كانوا عليه من قبل. وأرباب المال منهم لا هم لهم إلا حبُّ الدنيا وكرهية الموت. فلا يزالون منهمكين في طلب الدنيا وما فيها من المتاع. والنتيجة، هي أسوأ ما تكون! تكون

الأمة فريسة مكر العدو فتعمل في صالح غيرها وفساد أمرها فينطفئ نور الحق في قلوب الناس ويموت الحب، وتنفقد القيم العالية وتنحل مكانها الغرائز الحيوانية المسعورة. والمآل لهذا الحال أن تنقلب الأمة إلى رماد لا نار فيه وإلى فساد أي فساد!! شيوخهم بعيدون عن الحياء وشبابهم يتزينون كما تتزين النساء، وتتبرج المرأة تبرج الجاهلية الأولى.

لا إله إلا الله

كان الشاعر الإسلامي الكبير على معرفة كبيرة بالحقائق الصوفية والأسرار الكونية فيشرحها شرحا وافيا ويكشف اللثام عن وجوه الرموز، فيقول:

أقول لك كلمة حق عرفتها من أصحاب الحال

أن 'لا' للأمة جلال و 'إلا' لها جمال

إن 'لا' و 'إلا' قوة كونية وسيطرة مادية

وبهما تنفتح أبواب الكون كله

هما مضمّران في كلمة كن وهما سر تقدير العالم

وحركة الكون كله تنبع من 'لا' والسكون ينبع من 'إلا'

إن المرء إذا لم يدرك السر المخفي في كلمة 'لا إله'

لا يتيسر له أن يكون حرا من عبودية غير الله

إن بداية هذا الكون إنما هي من حرف 'لا'

فهي بداية العمل للرجل الصالح

إن حرف 'لا' إنما هو ضرب متصل

ليس صوت مزمار إنما هو صوت الرعد

يخاطب إقبال المسلم بهذه الأبيات البديعة الرائعة الزاهرة، فيقول:

إن النكتة اللطيفة التي عرفتها من أصحاب الحال الذين صبغوا حياتهم كلها بالعمل لما يحبه الله ورسوله، وتمكّن حبهما في قلوبهم، ورضوا بجميع ما صدر منهما من الأوامر والأحكام، أن كلمة "لا" جلال للأمة و"إلا" جمال لها، وإن "لا" و"إلا" هي القوة المستترة في كلمة "كن" التي ظهر منها الكون كله، فحركة الكون كله إنما هي نابعة من "لا" وسكونه ينبع من "إلا". وإنه من الواجب على المسلم أن يدرك السر المخفي في كلمة "لا إله إلا الله" لأنه إذا لم يدرك هذه الحقيقة، حق إدراكها، لا يكون حراً من عبودية غير الله. فبداية هذا الكون إنما هي من حرف "لا" وبداية عمل الرجل المسلم هي كذلك من كلمة "لا".

إن "لا" و"إلا" حقيقتان كبيرتان في الكون، يبتدئ المؤمن سيره في طريق الحق من "لا" وينتهي إلى "إلا". وهذه مسيرة طويلة شاقة محفوفة بالأشواق من جميع جوانبها، فيضل الشيطان سالكيها عن طريق الرشاد بجميع ما عنده من وسائل الاغتيال والاغترار، فيزين لهم طريق الغواية والضلال ليبعد بهم عن طريق الحق ويضلهم ضلالاً بعيداً، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

إن "لا" إنكار لكل باطل ورد لكل فاسد ونأي وبعد عن كل شر وترك وهجرة لجميع ما نهى الله عنه من رذائل الأخلاق وخسائس الأعمال ومزلات الأقوال. هذه في الحق مسيرة طويلة يسلكها السالك إلى الله بجد وإخلاص، حتى إذا وصل إلى نهايتها بدأ بمسيرة أخرى، ألا وهي مسيرة "إلا" فيؤمن السالك بالله إيماناً خالصاً أنه المالك الرازق القادر على كل شيء، فلا معبود إلا هو ولا موجود إلا هو ولا مقصود إلا هو، وليس لشيء ما وجود حقيقي، إنما هو وجود زائل فان يستعير لمحات الحياة القصيرة من الحي الذي لا ينام ولا يموت، وإن كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

فمن الواجب على الأمة المسلمة أن تستعيد قوتها وحيويتها من هذه الكلمة

لكي تنهض بها من جديد. وذلك لأنه إذا ركّز المرء المسلم هذه الكلمة في سويداء قلبه لتغيرت حياته من شدة ما لها من تأثير قوي في النفوس والحياة. وإن الأمة المسلمة إذا أرادت الحرية الكاملة من إصر الحياة الفاسدة ومن أغلال الوضع الراهن فيجب عليها أن تغرس في قلوب أبنائها بذر هذه الكلمة، ليكونوا أقوياء في مواجهة الظلمة الذين ملكوا رقابهم، لأنه إذا ركّز حبُّ هذه الكلمة في قلب أحدٍ يقوى قلبه و يصيرُ له هيبة يخاف منها الناس. إن كلمة "لا" رعدٌ شديد وضربٌ متصل، يبديد كلَّ شيء من شدة ضربها، فيصير المؤمن القوي غالباً متمكناً في الأرض.

وقد كانت العرب قبل الإسلام في خمودٍ وذهول، ولم يكونوا شيئاً يُذكر بين الأمم. ولكنهم بعد ما نهضوا بهذه الكلمة - لا إله إلا الله - وتمكّنت في قلوبهم ورسخت في وجودهم، تغيرت بها حياتهم و تبدلت الحال غير الحال. وما هي إلا أيام قلائل حتى نفضوا الغبار عن وجوههم، وتركوا تلك العادات السيئة التي ورثوها عن آبائهم، وانقلبوا انقلاباً تاماً ففتحوا العالم كله، وبلغوا بهذه الكلمة إلى أقصى أنحاء العالم. حطّموا كلَّ صنم يُعبد، وفتحوا البلاد العظيمة التي يملكها قيصر وكسرى. وقد تحرقوا شوقاً لتبليغ هذه الكلمة إلى أنحاء العالم وترسيخها في قلوب الناس، ليظهر في العالم كلّهُ نورٌ جديدٌ من العلم والمعرفة. ودوّى صوت أذانهم من أدنى الأرض إلى أقصاها ومحووا كل نقش في القلب إلا ما كان لله.

إن الأساس الذي أسست عليه ثقافة المسلمين وحضارتهم إنما هو الأصول التي وضعها الدين الإسلامي، فقد كانت حضارتهم حضارة مؤسسة على الدعائم الروحية وأصول الأخلاق، فازدهرت هذه الحضارة وانتشرت في أنحاء العالم واستفادت الإنسانية منها فوائد عظيمة في جميع مجالات الحياة، واقتبست العلوم والمعارف من هذه المشكاة النيرة.

وعلى العكس من ذلك نرى أن الحضارة الجديدة مؤسسة على أصول

المتنوي

رأسمالية مادية بحتة لا تهتم بقيم الأخلاق الإنسانية، إنما كان همهم الدنيا ومتاعها، فتنافسوا فيها تنافس البهائم وتنازعوا من أجلها منازعة شديدة وتحاربوا لها حروبا كبيرة. فحدثت من جراء ذلك أحداث سالت بها الدماء كالأنهار، وقامت الحرب بين العبيد والملوك. ونزفت الدماء من قلب روسيا فخرج من داخله صوت "لا" فأنكروا كل شيء وأعلنوا أن لا سلطان ولا كنيسة ولا إله! ولكن وقع الفساد في فكرهم إنهم توقفوا على قولهم "لا" ولم يسيروا في الطريق إلى الأمام حتى يقولوا "إلا". والحياة لا تستقر على "لا" بل لا بد لها أن تنتقل إلى "إلا" لأن الأمم في حاجة إلى "لا" و"إلا" معاً. وذلك لأن النفي بدون الإثبات لا تنفع بل يكون سبباً لزوال الأمة. ألا ترى أنه لو توقف إبراهيم الخليل على "لا" ولم يتواصل سيره في الحق إلى "إلا" لم تكن النار له برداً وسلاماً!

الفقر

يقول الشاعر العظيم: إن الفقر صفة إيمانية قوية ومملكة عظيمة يعلو على عالم الملكوت ويغلب على الأسباب، فالفقير عند إقبال هو الذي يعتمد على الله ويتوكل عليه ويثق به ولا ينظر إلى الناس في حاجته بل يتوجه في جميع أمور حياته إلى الله ويدعوه آناء الليل وأطراف النهار دعاء متضرع خاشع ويناجيته مناجاة عبد متذل فقير.

فيقول الشاعر العبقرى العظيم:

وما أدراك أيها الإنسان المخلوق من الطين ما الفقر؟

هو القلب الحي الذي ينظر بنظره الدقيق في بواطن الأمور

الفقر هو التأمل في الأعمال

و الفقر هو طوافاً حول كلمة 'لا إله'

حكمة الدين هي حب الفقر والشوق إليه

وقوة الدين إنما هي من استغناء الفقر

وقد استفاد إقبال هذا المعنى من كلام الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^١
ومن قول الرسول ﷺ "الفقر فخري".

فالناس يفتقرون إلى الله في كل ما يحتاجون إليه، لأن الله هو الخالق المالك الذي خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فلما كانت روحه قد جاءت من عند الله فهو مفتقر إليه في حاجاته كلها مادية كانت أو روحية، ولما كان الإنسان خلق من طين ونفخ فيه النفخة الربانية، فهو في حاجة إلى تكميل حاجاته المادية كما هو مفتقر إلى تكميل مقتضياته الروحية، وإن تكميل مقتضيات الروح إنما تقف على الإيمان بالله. والحق إن في الإنسان فراغاً - منشؤه الروح التي بين جنبيه - لا يملؤه علم ولا فلسفة، ولا مال ولو أعطي الدنيا كلها، إنما يملؤه الإيمان بالله والثقة به والتوكل عليه. فالإنسان مفتقر دائماً في قضاء حاجاته كلها إلى الله تعالى. وهذا الافتقار يقتضي العبودية الكاملة لله تعالى وذلك بالذكر الدائم المتواصل له، فالمؤمن لا يخلو قلبه عن ذكر الله ولا يتوثر لسانه عنه، وجسمه وجوارحه يتوافقان توافقاً كاملاً مع قلبه ولسانه، فالروح والقلب والجسم والأعضاء تكون في طوافٍ مستمرٍ دائمٍ حول كلمة "لا إله" . فالفقر هو الإيمان بالله الذي يدخل في بشاشة قلب المؤمن فيصبغ حياته كلها بهذه الصبغة، وتتلون طبيعته بهذا اللون فيأكل قطعة من الرغيف الجاف ويفتتح خبير ويغلب على الملوك والسلاطين وثيابه مرقعة من هنا وهناك. فالفقر حبٌ وشوقٌ وتسليمٌ ورضاً. والفقر هو متاع النبي الأمين ﷺ وأنا أحمل هذا المتاع الذي أريد أن أسلمه إلى الأمة المسلمة.

^١ - سورة فاطر آية ١٥.

إن الفقر يؤثر في قلب المسلم تأثيراً عميقاً، ويخلق منه إنساناً آخر، يملأ الجو من صوته، ويمنح الضعفاء قوة وحرية لمقاومة الطغاة الظلمة. وذلك لأنه يحمل القرآن ويعمل بمقتضاه فيملك في فقره كل شيء. ولو إنه ساكت صامت ولكن حرارة نفسه لها تأثير عميق في الأحوال والحوادث.

وقد قال الرسول ﷺ:

"إنما جعلت لي الأرض مسجداً".^١

ومن الواجب أن يكون المسجد محترماً عند المسلمين يكرمونه ويجلّونه ويظهرونه، والأمة المسلمة غفلت عن هذا الواجب عليها، ولكن من الأسف أن هذا المسجد (البلاد الإسلامية) قد سقط في يد غيرنا، فمن الواجب على الأمة المسلمة أن تستعيد قوتها وحيويتها، وأن تعمل بجد وإخلاص لنيل مقاصدها العظيمة.

وليس المراد من الفقر ترك الدنيا، وإنما المراد منه خلو القلب من حب الدنيا ولعاعتها، لأن القلب لا يتسع لحبين معا حب الله ورسوله وحب الدنيا، فالواجب أن يكون قلب المؤمن فارغاً من حب الدنيا، إذا توقفت لا يفرح وإذا فقدت لا يحزن، عملاً بقول الله تعالى:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾^٢

إن الرجل المؤمن الحر يشابه في أوصافه الشاهين لأنه يصطاد لنفسه ولا يأكل من طعام تركه غيره، ويطير في الفضاء البسيط الواسع ويبني عشه في مكان عال رفيع لا تناله الأيدي. أسفا على الشاهين (المسلم) على أنه فقد أوصافه

^١ - إشارة إلى الحديث: 'جعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً'. سنن أبي داود، الصلاة، رقم الحديث ٤٧٩ - الرياض.

^٢ - سورة الحديد آية ٢٣.

وقعد كئيباً حزيناً لا يطير في الفضاء البسيط!

فقر المؤمن تسخير الكون! لأن المؤمن يعمل للخير ويجاهد لسعادة الإنسان وفلاحه، ويعمل بجميع ما يحبه الله ورسوله، وبهذا تحصل له قوة عظيمة وسطوة كبيرة يسخر بها الكون! أما فقر الكافر فهو عبارة عن ترك الدنيا والفرار إلى شواهد الجبال والاختفاء في الغابات! الفقر عند المؤمن هو خلوص قلبه عن غير الله، فلا يلتفت ولا يميل إلى شيء غير الحق سبحانه، ولا يلتفت إلى خزائن كسرى التي أقيت مساء يوم في صحن المسجد، ولكن المؤمن قام ليصلي، وما أكل إلا قطعة من الخبز الجاف، وما لبس إلا لباساً خشناً فيه رقعة من الأدم ورقعات كثيرة غيرها. فقر الكافر تسليّة له وراحة لأنه ينجو به من الكد في العيش والجهد في العمل. أما فقر المؤمن فهو عمل مستمر وسعي دائم وجهد متواصل وتفان في سبيل الحق. فظهور الفقر هو بدر وحنين وظهور الفقر هو تكبير الحسين.

أسفاً علينا، إن الأمة فقدت سيفها منذ دهر طويل، ونحن نحيا حياة فاقدة العزة والسلام. وقد قال عمر رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام. فإذا التفتنا إلى غير الإسلام ذهب عزنا وفقد ملكنا وغلب علينا غيرنا، فلا بد لنا من الرجوع إلى الذي فقدناه، فإذا اتبعنا هدي الرسول صلّى الله عليه وآله، واقتدينا به يجدد لنا العالم غير هذا العالم ويحيا المسلم فيه حياة جديدة ينظر فيها بنور الله.

أسفاً، على الأمة المسلمة التي سقطت من مكانتها الرفيعة، فلم يبق لهم شيء من الرفعة والعلى، وذاقوا كل طعم من الذلة والهوان، ويعيشون حياة دنيئة خالية من الفكر الأعلى والوجدان الأسمى. وأنا أعرف سبب هذا الزوال والتقهقر، ولكني لا أتمالك نفسي أن أبوح به، لأنني كلما أردت أن أذكر هذا الأمر يشتد بي البكاء، ثم لا أملك نفسي ولا أستطيع أن أعبر عما أجد في صدري من الهم والحزن.

ومع هذا الأسف الشديد الذي يحسه شاعرنا الكريم فهو لم يتخلف عن ذكر بعض من الأسباب التي أدت الأمة المسلمة إلى الضعف والإتحال، فيقول:

إن الأمة تفقد القيادة الصالحة التي تقوم بأمورها وترشدها إلى ما فيه صلاحها منذ زمان طويل، فلم يبق فيها رجل بصير بعواقب الأمور، فتفرقت كلمتهم وتزعزعت قوتهم وتششت شملهم، فهم في فوضى لا يرون الطريق. لم يبق في قلوب كثير من المسلمين تلك الحرارة الإيمانية التي جعلتهم قادة العالم وسادته، ففقدوا ما كان عندهم من الإيمان الكامل واليقين الواثق. إن المسلمين لا يزالون يعانون الذلة والهوان منذ ثلاثة قرون، فأثر هذا الحال في طباعهم فرضوا به واطمأنوا عليه فلم تبقى فيهم الحيوية والجد والجهد لانقلاب الحال. إنهم فقدوا كل فكر أعلى ووجدان أسمى حتى لا نجد في المدارس ولا في معلميها ذوقاً علمياً. وإن ضعف حال المسلمين الاقتصادي صار سبباً من أسباب التقهقر والزوال، فالمسلم في هذا العصر كالرجل المطرود من موله، مفلس صعلوك غافل عن كل ما يهمه. ولم تبقى جماعة العلماء أيضاً مصونة من الزوال الذي نزل بالمسلمين عامتهم، فسقطوا من مكانتهم العلمية الرفيعة ولم تبقى لمعظمهم سيرة طيبة وقدوة صالحة يقتدي بها المسلمون اللهم إلا نفرًا قليلاً منهم وقليل ما هم.

وخلاصة ما قاله إقبال إن الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة وسقوطها من مكانتها الرفيعة، هي هذه:

- ١ - ضعف الحرارة الدينية وفقد الإيمان الكامل.
- ٢ - عدم وجود القيادة الصالحة.
- ٣ - تفرق المسلمين إلى شيع وأحزاب.
- ٤ - الجمود والحرمان من الأفكار الحية الجديدة.

٥ - الضعف الاقتصادي.

أيها المسلم الذي خلا قلبه عن حب الله ورسوله! هل عرفت ما فعل بك هذا العصر؟ ألهاك عن أسوة الرسول وجعل قلبك خالياً من حب الله ورسوله، وأنت لا تدري ما كنت تخفيه بين جنبيك، وما خسرت به بعد ما خلا قلبك من الحب والشوق والوجدان. إنك أيها المسلم، قد نسيت نفسك فلم تبقى بعد في قلبك الأمل في تغيير الحال وتطوره. إلى متى تبقى في هذه الحال من الخوف، قم واصنع لك مقاماً يليق بك. احتسب نفسك ولا تكن من الغافلين! إعرف نفسك يا شاهين ولا يكن طيرك مع الغربان! إن الله أعطانى قلباً ذا حرارة واضطراب، فخذوا عني حرارة الحب، سوف لا يأتي بعدي رجل فقير مثلي!

الرجل الحر

الغرض الأسمى في نظر إقبال للدين الإسلامي كله، وللشريعة الإسلامية بأسرها، أن يكون المرء عبداً لله بالاختيار، لأنه إذا اختار هذا الدين وهو راض به وعمل بالشريعة الإسلامية مع حبه لله ولرسوله، تتكون في وجوده قوة عظيمة روحانية، وهذه القوة الروحانية التي يسميها إقبال "خودي" (أنا)-وإذا وصلت هذه القوة إلى منتهاها، وبلغت "خودي" (أنا) إلى أقصاها، ينتج منها الفقر أي الاحتياج إلى الله وحده والاستغناء من غيره، وخلو القلب عن كل حب سوى حب الله ورسوله، وإذا اتصف المؤمن بهذا الوصف حصلت له الحرية الكاملة، الحرية من الدنيا وحبها وما فيها من كد وكبد وما انطوت عليه من ضنك العيش ومرارته. وهذا هو الرجل الحر! فالرجل الحر لا يخاف أحداً إلا الله تعالى، لأن باطنه منور من كلمة "لا إله" وإنه لا يزال ثابتاً في العالم الذي يتغير كل حين، فيحيا حياة سرمدية حتى إنه يبقى حياً بعد موته، لأن الموت عنده مقام من مقامات الحياة، له دوي في صدره من التكبير وبهذا الصوت تستيقظ الأمم، وإن

المتنوي

تقديرها مستكثة في جبينه، لأنه دائم الإتصال مع خالقه وقد أفنى رضاه في
رضاء الله، وقد ذكر إقبال في هذه القطعة من المتنوي أوصافاً للرجل الحر عديدة،
نلخصها فيما يلي:

الوصف الأول:

الرجل الحر يقوم أمام الباطل بثبات وعزم وشجاعة، لأنه يركّز فكره على
أمر الله تعالى : "لا تخف إنك أنت الأعلى".

الوصف الثاني:

ينظر في احتياجه إلى الله و لا ينظر إلى سواه، فيملك الاستغناء عن غيره.

الوصف الثالث:

يبذل حياته، في سبيل الحق، ويستشهد بدمه إن قول الله هو الحق.
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا
تَشْعُرُونَ﴾^١

الوصف الرابع:

لا يملك شيئاً من أسباب الدنيا ومع ذلك يأتي إليه أرباب الدنيا خاضعين.

الوصف الخامس:

الناس يعرفون الدين وأسراره من الكتب وهو يرى ما هو مخفي من أعين
الناس من الحكم والأسرار؛ لأن معرفة الله تعالى لا تحصل من النظر في الكتب،
إنما تحصل بصحبة أهل النظر و أصحاب الحال.

^١ - سورة البقرة آية ١٥٤.

في أسرار الشريعة

إن الإسلام دين كامل يشتمل على جميع ما يحتاج إليه الإنسان من تعليم وإرشاد في حياته الدينية والدنيوية. فالإسلام يشتمل على العبادات التي تربط الصلة بين العبد وربه، ويشتمل على الأخلاق الفاضلة التي تربي في الإنسان صفات حميدة عالية، ويشتمل على الأصول القيمة التي تقوم عليها العلاقات المستقيمة بين الناس، ويشتمل على تعليمات رفيعة تتعلق بالمال والاقتصاد، ويشتمل على قواعد محكمة للحكم والسياسة. فالإسلام يرشدنا إلى أن نقوم بتنظيم المال والاقتصاد على أسس قويمية، أولها أن يكون كسب المال و صرفه في الحدود التي حددها الله ورسوله.

نظرا إلى هذه الحقيقة الواضحة يقول إقبال:

تعلمت من مرشدي - الرومي - أسراراً

فحفظتها وأفنيتُ نفسي في هذه الأسرار

إذا كان المال للإنفاق في وجوه الخير

فنعم المال الصالح للمرء الصالح كما قال الرسول^١

يقول إقبال بأنني تعلّمتُ من مرشدي الرومي نكتة بليغة وهي أن المال

^١ - جزء من الحديث الطويل المروي عن عمرو بن العاص أنه قال: 'بعث إلي رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم انتني، فأتيته وهو يتوضأ، فصعد في النظر ثم طأ طأ، فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويعتمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، قال، قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، و لكنني أسلمت رغبة في الإسلام، و أن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح.' مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ١٩٧ -

المثنوي

صالح إذا كان حصوله من طريق الحلال وإنفاقه في وجوه الخير، كما ورد في الحديث الشريف، فالذي لا يكون عمله موافقاً لهذا الحديث الشريف ولا يفكر فيما يحتوي عليه من معانٍ ساميةٍ وأسرارٍ كامنةٍ فهو في الحقيقة فقير المال عبدٌ له. وصلاح الأمة إنما هو مكنون في الفقر لا في حب المال. وذلك لأنه كلما تمكّن حب الدنيا في قلب رجل تتغير رؤيته إلى الأشياء وينقلب فكره، فيصير جباناً يخشى من تغير الحياة وتقلب الأمور وينقلب طمّاعاً بخيلاً بالمال يأكلُ لقمة الفقير ولا يستحيي منه.

نعم المتّعمّ الصالح الذي يعيش يعيش الفقراء،

ويعيش في هذا العصر كما يعيش العارف بالله

إن الاقتصاد الإسلامي إنما هو قائم على أساس الحلال والحرام، وهذا أساسٌ مهمٌ لوضع الاقتصاد الصحيح، وأصلٌ متينٌ لحفظ المجتمع من الفساد والضرر اللذان يقعان من عدم الاحتياط في أخذ المال والتصرف فيه، فيبتلي الإنسان بذلك في رفس المال ودنسه. إن الناس في هذا الزمان لم يصلوا إلى إدراك هذه الحقيقة ولم يعرفوا السر الكامن فيها فانكبوا على حصول الدنيا ومتاعها دون أن يفرقوا بين الحلال والحرام وبين ما يصلح لهم وما لا يصلح لهم. ولعدم تفريقهم بين الحلال والحرام أكلوا أموال الناس بالباطل، حتى صار عندهم أن الحكمة أن يسلبوا ما يجدونه عند الفقراء، وأن ينهبوا الملل والأقوام، وأن يفترسوهم افتراس الأسد الجائع، فلا يجتنبون انتهاك الحرمات ولا يبالون بأصول ولا قاعدة. ليس من الممكن أن يبقى الدين والتهديب والحكمة حتى لا يفنى هذا النظام الفاسد.

اتبع الشريعة لتكون في أحسن تقويم

كن وارثاً لإيمان إبراهيم

إن الإنسان في هذا العالم لا يستطيع أن يعرف الحق من الباطل وأن يميز بين الصلاح والفساد، وأن يعلم ما فيه صلاحه ورشده. هذا أمر لا يُرشد به عقله، لأن العقل الإنساني مقيدٌ في دائرة الحس والمشاهدة. فيحتاج إلى معرفة ما فيه خيره وصلاحه إلى نور الحق المبين الذي يتجلى في الشريعة الإسلامية بوضوح. إن منبع الشريعة الإسلامية هو قلب المصطفى ﷺ، الذي نزل عليه الوحي من عند الله الذي خلق الإنسان فيعرف جميع ما في الإنسان من ميول ومقتضيات روحية كانت أو جسمية، فالشريعة الإسلامية شريعة تطابق فطرة الإنسان مطابقة تامة وتوافق طبيعته البشرية موافقة كاملة، فلو آمن الناس بها وسلخوا منهاجها المستقيم لضبط نظام العالم إلى يوم القيامة.

يقول إقبال: أيها القارئ الكريم! قد عرفت الآن الشريعة وعلمت بعضاً من أسرارها، فما هو الطريق، يا ترى؟ الطريق أو السلوك هو النظر في الشريعة من أعماق قلوبنا، حتى نرى ونتيقن إنها نبعث من روحنا التي بين جنبينا، فهي موافقة لفطرة الإنسان نابعة من طبيعته. فإذا وجد المؤمن هذه الحقيقة وأدركها بتمامها، عرف طريق الوصول إلى الله، وأدرك أنه حر مختار في العمل بما أمر الله ورسوله، وإذا لم ير العبد هذا الأمر جلياً واضحاً يظن أن الشريعة طرأت عليه من الخارج وأنه مجبور على العمل بها فلا يبقى حراً من قيد الجبر والاختيار. إن بعضاً من العلماء والصوفية يتكلمون عن الدين والشريعة ويدعون معرفتهم بالقرآن والسنة، ومع ذلك لا يفهمون هذه النكتة. وقد ظهر من بينهم المتنبي الكاذب الذي يدعي أنه جاء ذكره في القرآن، وذلك لأن القرآن قال: "يأتي من بعده اسمه أحمد." وكان في الحقيقة اسمه غلام أحمد (عبد أحمد) القادياني، فبغى هذا العبد وطغى طغياناً كبيراً.

أيها المفتخر بالقرآن إلام العكوف بدون العمل، قم واكتشف للناس أسرار دينهم ووضح لهم نكات الشريعة، والنكتة المهمة من هذه النكات هو أن لا يكون أحد من الناس مفتقراً إلى غيره. فسد العالم كله فقم وقدم إلي الناس أسوة عملية

عبرات على افتراق المسلمين في الهند

يخاطب إقبال أهل الهند ويقول لهم إلامَ تعيشون في ذلّ العبودية، قد تحرّرت الأقوام والملل وأنتم لا تزالون تعانيون المصائب تحت سيطرة الأغيار. هذه حياة تشبه الموت بل هي أشد منه لأن الموت أمرٌ يتعلق بالقضاء والقدر الذي لا دخل لنا فيه. أما هذا الموت فقد ألبسناه على وجودنا. هذا النوع من الموت لا يحتاج الإنسان بعده إلى المغسل ولا إلى القبر. لا يبكي أحد على هذا الموت ولا يحتاج الميت أن ينتظر لحسابه إلى يوم القيامة. لأن هذه الدنيا هي مزرعة الأعمال، فما زرعناه حصدناه. إننا كنا في اختلافٍ وافتراق، وكنا في شقاق بعيد، فتغلّبت علينا أقوام من الغرب وتحكمت في أمورنا وصارت هذه الدنيا معادناً نعاني فيها أشد العذاب. ولم يبق لنا من الأمر بدٌّ إلا الانقلاب! فيا للانقلاب! والانقلاب لا يتأتى إلا بعد الانقلاب في صدور الناس، لأن الله تعالى ﴿... إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾^١. فاطلب من الله قلباً واعياً يشعر بالأمور على وجهها ويفهم عواقب الأحوال فهماً بليغاً. لا تفهم أن القلب عضو مخلوق في جسد الإنسان، نعم هو كذلك ولكنه مع هذا محل الروح التي هي أمر من أمر الله، فإذا اتجه العبد بقلبه إلى الله، وتوكل عليه، واتسم بعبوديته الخالصة من دواعي الشك وشوائب الريب، ينعكس زجاج قلبه من نور البصيرة، فيصير مكانه فوق السماوات التسع^٢. فالمؤمن الذي يحمل هذا القلب في

^١ - سورة الرعد آية ١١.

^٢ - إن بعضاً من الصوفية يعدون العرش والكرسي في عداد السماوات فيجعلون عددها تسعاً، وقد أورد الرومي هذا المصطلح في كلامه، وقد سلك إقبال مسلك الرومي في كثير من الأحيان.

المثنوي

صدره، هو الذي يتمكن من الانقلاب لأنه هو الذي تنفجر الأرض من ضرب قدمه، وهو السراج المنير في ظلمة الأرض. فطريق الانقلاب هو طريق المعرفة والفقر. فخذ أيها الشاب هذه النصيحة مني، ولا تموتن إلا وأنت حرٌّ من ذل العبودية!

السياسة الحاضرة

إن السياسة الحاضرة هي كالسياسات القديمة، تُسيطر على دهماء الناس وتضع في أرجلهم سلاسل العبودية، وليست الحرية التي تُقدّمها إلى الناس وتُغريهم بها من الحقيقة في شيء. فإن الأمم المستعمرة لما رأت أن الناس شرعوا يستيقظون من سباتهم الطويل، وبدعوا يفهمون أمورهم، أرخت سِتار الديمقراطية الجميلة على وجه الملكية. هذا الفضاء لا يليق بطائر يريد التحليق في الفضاء الواسع الطليق. إن هذه السياسة تقول للطائر الحبّيس في القفص: لتنهأ بعيشك في هذا المكان، تُعطى طعامك وشرابك من غير كدٍّ أو عناء، وحذار أن تفكر في الخروج من هذا القفص، لأنك لو خرجت منه لافترستك الطيور ذات المخالب، فهنيئاً لك رغد العيش والسلامة من الموت. فانخدع الطائر بهذا الكلام المليح واقتنع بما يجده من الطعام والشراب، وحبس نشيده في حلقومه، فلم يغرد بعد. إذا أردت الحرية فلا تقربن سياستهم الخادعة وقل أمام فرعون مقالة الكلّيم: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^١، فيكون البحر يابساً من ضربك الشديد.

وا أسفاه! على الأمة المسلمة، قد تبدلت الحال غير الحال وانقلبت الأمور رأساً على عقبها، وفقد الدرّ المستنير بريقه ولمعانه وتحول إلى حجر أسود، فلم يبق في الأمة المسلمة أحدٌ من أمثال أولئك الرجال الذين كانت قلوبهم منورة

^١ - سورة طه آية ٥٠.

بحب الله ورسوله. والمسلمون في هذا العصر فقدوا جميع ما عندهم من أوصاف الكمال. أما الآن فهم ليسوا بشيء وما هم إلا عبيد الدرهم والدينار. فقد صاروا بعيدين عن الحرم واقتربوا من الكنيسة. إنهم فقدوا إحساسهم ومات شعورهم بذاتهم ولم يبق أنا (خودي) حياً في وجودهم. نعم إنهم يدعون الإسلام بالسنتهم، لكنهم لا يأتون بشاهدي عدل (العمل الصالح والخلق الحسن) على صدق دعواهم ولا يظهر أثر الإسلام في حياتهم العملية. وأنا أبكي بكاء حاراً على هذه الحال. لم يبق ذلك المسلم الذي كان وجوده برهاناً ساطعاً على الحق، حتى إن الكافر إذا رآه آمن برويته بأن دينه هو الدين الحق. ذلك المؤمن الذي ترتعد له الأرض إذا وضع جبينه عليها، والذي كان يوحد الله في ظلال السيوف. فإلى متى تبقى - أيها المسلم - في هذا الحال؟ وما ذا يكون الطريق للخروج منه؟ إن طريق الخروج من هذا البلاء المسيطر هو أن تحيي قلبك وتجعله فارغاً لحب الله ورسوله، وتدعو الله دعاءً خاشع متضرع وأنت قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً ترجو الآخرة وترجو رحمة ربك. إلام تعيش كالورق الجاف الذي يطفو على سطح الماء؟ يجب عليك أن تتعلم ضبط النفس حتى تكون راسخاً كالجبال.

الرجل العاقل ذو الحزم لا يبوح بأسراره، ولكنني لا أستطيع أن أخفي عنك ما رابني من الهم والحزن. وذلك لأن الصلاة التي كانت متصلة بيني وبين الحرم، انقطعت بعد أن صرت عبداً للغير. يتقطر وجودي بعرق الندامة والانفعال كلما أردت أن أصلي على الرسول ﷺ. كيف أصلي عليه، بعد أن صار قلبي معبداً للأصنام؟! إذا كان وجودك خالياً من الأخلاق المحمدية فصلاتك عليه تكون بعيدة عن مراعاة الأدب في شأنه.

لما كانت الحياة محكومة لغير الله، فالصلاة صارت فاقدة السرور، فلم يبق في قيامي حضور ولم يبق في سجودي وجدٌ وشوقٌ. الصلاة هي منتهى العبودية والسجدة من أهم أركان الصلاة. نحن عبيدٌ لا نعرف ما في السجدة من جلال

المثنوي

وجمال، وإنها عند ما كان المسلم الحر يضع جبهته على الأرض ساجداً لله، كانت السماوات تطوف حوله. وما للعبيد أن يذوقوا حلاوة الإيمان إنما هي للأحرار وليس للعبيد. كن مؤمناً حقاً واحي في قلبك الحب الشديد ترى الصلاة - حقيقة - إنها معراج المؤمنين.

كلمات قلائل إلى الأمة العربية

أيها الأمة العربية! لتبقى بلادكم إلى الأبد! من ذا الذي فتح بلاد قيصر وكسرى وأعلن أنه 'إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده'¹ وقولوا لنا أيها العرب من هو الذي تلا الآيات القرآنية؟ ومن هو الذي عرف أول ما عرف السر المكنون في كلمة "لا إله"؟ ومن هو الذي قدم العلوم والحكمة إلى الإنسانية؟ ومن هو الذي نزلت فيه الآية القرآنية ﴿... فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾²، ذلك هو النبي الأمي الذي ازدهرت بوجوده صحراء العرب، وأعطى الإنسان الحرية التي فقدتها منذ دهور مديدة! معارك بدر وحنين إنما كانت لتظهر منها أمة عظيمة يمثلها الصديق والفاروق وعلي والحسين. هم الذين صدعوا بكلمات الأذان أثناء الحرب، وهم الذين كانوا يتلون سورة الصافات - وهم في صفوف الحرب - وهم يقاتلون في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. سيف صلاح الدين الأيوبي ووجدان با يزيد البسطامي كلاهما مفتاحان لخزان العالم. هذا النبي أعطى الإنسانية جميع ما تحتاج إليه من العقل والروح، ومن الذكر والفكر، ومن العلم والعمل، ومن الدين والشريعة، ومن الحكمة ونظم الحياة،

¹ - إشارة إلى قول الرسول ﷺ: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتتفق كنوزهما في سبيل الله." صحيح البخاري، الإيمان، كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم الحديث: ٢٦٣٠ - الرياض.

² - سورة آل عمران آية ١٠٣.

المثنوي

والقلب المضطرب في صدر الإنسان! ترى ما يتجلى من الحسن والبهاء في قصر
الحمراء وتاج محل! هذه كلها من المعجزات التي ظهرت على أيدي العرب!
فالمدح والثناء كله لذلك الرسول الذي جاء من الله نوراً وكتاباً مبيناً ليخرج الناس
من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

فالمدح والثناء لهذا الرسول العظيم

الذي نور قلب الإنسان بالإيمان

إن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، قد جعلكم أقوىاء غالبين على تقادير
الأمم، ففتحتم الشرق والغرب، و لكن يا للأسف عليكم فقد نبذتم وراء ظهوركم ما
كان عندكم من الخير الكثير والحال أن الأمم قد تقدمت وتطورت في هذا العصر،
ومضيت في تلك الحالة الراهنة من التفرق والتحزب والشّتات. وما فعلتم لم يفعله
أحد قط، أنتم آديتم روح الرسول ﷺ، بالأفعال التي فعلتموها. أيها الغافل عن
كيد الغرب ومكره، إنه هو الذي شتّت وحدة العرب وتركهم في فوضى لا نجاة
لهم. منذ أن وقع العرب في شبكةِ اصطيادهم ما حصل لهم الأمن والسلام في يوم
من الأيام. انظر أيها العاقل وفكر في عاقبة أمرك.

إن هذا العصر الجديد مدين لك لأنك الذي وضعت الأساس لهذا العصر. يا
رجل الصحراء قمّ وجاهد للحصول على تلك المكانة التي فقدتها وإنما تحصلها
بالإيمان القويم على هذا الدين والعمل بما يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،
كما حصلتها من قبل. ولن يصلح أمرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

يا رجل الصحراء! قم و ابن العالم بناءً محكماً

وقس كل شيء بمقياسك

فماذا نعمل بعد يا أقوام الشرق

هذا جزء مهم من المثنوي والحق إن الشاعر الإسلامي العظيم نظم هذا

المثنوي لأجله:

فما ذا نعمل بعد يا أقوام الشرق

لتكون أيام الشرق مشرقة مرة أخرى؟

الإنسانية كلها مدمية باكية على ما تُعانيه من الآلام والمصائب التي نزلت عليها وهذه الحوادث والآلام التي تتساقط على الإنسانية كما تتساقط قطرات الماء من السحاب ليست إلا ما كسبت أيديها. ولكن طلائع الانقلاب تتراءى من بعيد! فما ذا نعمل بعد أيتها الأقوام الشرقية لتشرق الشمس من المشرق من جديد. والآن وقد ظهرت بعض من العلامات التي تدلُّ على تغيير الحال وتطوره إلى أحسن حال من الذي كنا فيه. قد اتخذت شعوب الغرب أصول اللادينية لسياستهم وثقافتهم، وجعلوا ينظرون إلى الإنسان على أنه حيوان مادي فقط وليس له منزل يسير إليه. وهذا الأصل بمثابة سيفٍ يقتل حامله.

المسلم ينظر إلى الأشياء بنور الله ويستنير وجوده بنور العلم ويكون قلبه خاشعاً متضرعاً إلى الله. ولكن الناس في هذا العصر فقدوا المقياس الذي يُميّز به الخير من الشر. إن الرجل الحر هو الذي يرى في الكون آيات الله الباهرة فيستنير وجوده بنور العلم ويكون من عباد الله الخاشعين. ولكن الحال في الغرب تختلف عن حال المسلمين، ليس عندهم يقين ولا إيمان، جُلُّ ما هو عندهم هو الدنيا وما فيها. فصارت قلوبهم صلبة كالحجر وصارت أعينهم يابسة الدموع. إنهم أسسوا حياتهم على فكرة اللادينية، والعقل عندهم مكرٌ يستخدمونه للحصول على متاع الدنيا ولذاتها. ومن الواجب أن يقف المسلم ويغيّر الحال غير انحال لتنتعش روح الشرق وتحيا مرة أخرى. العقل إذا كان تحت تأثير الهداية الربانية

يكون موهبة من الله تعالى وإذا صار تحت تأثير المادة تحول إلى مكر ودهاء وكيد من الشيطان عظيم.

كان إقبال شاعراً ذا حساسية مرهفة، تفرعه الحوادث وتجعله يفكر في عواقب الأمور، ويرى أنه من الواجب أن يرسم للناس قانوناً جديداً يحل مشاكلهم ويعطيهم الأمن والسلام. لأن الأنظمة القائمة، في الزمان الذي كان إقبال يعيش فيه، لم تغن شيئاً في حل المشاكل الإنسانية بل تسببت إلى ازديادها. وإن الأمم الضعيفة لم تنزل تناشد الإنسانية أن تقوم لحل ما نزلت بها من المشاكل والمصائب، وفوق ذلك كله هناك أحوال لا أستطيع أن أذكرها جميعها لأنني لو ذكرتها وكشفت اللثام عن خفايا أمورنا لنجمت منها الفتن!

الأمة المسلمة تحتاج إلى تغيير لونها بلون جديد، وعليها أن تصبغ وجودها بلون غير هذا اللون. فيجب عليها أن تترك ما تجده في نفسها من حب الدنيا ومتاعها الفاني. فيا أيها المسلم! اختر لنفسك حياة أهل الحق وكن قويا بالاتحاد لأن شرف الشرق وتقديره إنما هو في يدك. فأنت تحتاج إلى فكر سليم مستقيم وقوة مادية تستطيع بهما أن تنهض من جديد، ولتنهض معك الأمم الشرقية الأخرى.

لم تنزل أرض آسيا مهبط الوحي والإلهام منذ زمان قديم. إن الأنبياء والرسل الذين جاؤا لهداية البشرية وإنقاذها من الضلال إنما بعثوا في هذه الأرض. وكذلك الأولياء والعباد والزهاد إنما ظهوروا فيها. فمركز العلم والعمل والدين، والرقي والتطور في جميع العلوم والفنون التي ظهرت وتطورت في العالم بأسره إنما كان مصدرها الشرق. والعشق والوجدان والحب ما وجدت إلا في هذه الأرض، حتى إن السماء لتحسد أهلها عليها لما لها من فضل الله العميم. إن فكر أهل الشرق هو الذي كشف لأول مرة عن أسرار الوجود وأدرك ما كان مستتراً في الوجود من الحكم والأسرار. نحن الذين نحمل في صدورنا نار العشق ووضعنا هذا

المثنوي

السراج في الطريق فالناس في العالم كله إنما اهتموا بضوء هذا السراج وعرفوا
منا العلم والحكمة. فيا أيها الأمين أخرج من جيبك اليد البيضاء - كما أخرجها
موسى أمام فرعون - لتتنور بها حياتك مرة أخرى. قم وقدم الحل لتلك المشاكل
التي تعانيها الأمم الشرقية كلها وفكر في تشكيل جمعية الأقوام الشرقية.

الأمم القوية المسيطرة على الأمم الضعيفة تختار لغبتها وبقاء سيطرتها
أصنافاً من الحيل وأنواعاً من الغش والكيد، فيجب على الأمم الشرقية أن تكون
على حذر منها لكيلا تقع فريسة في حبال مكرهم. غريب أمرهم يجرحوننا ويأتون
لنا دواءً شافياً من بلادهم. تسيل دماننا بالجروح والقروح التي تركوها في
أجسامنا ونحن نرجو منهم الدواء ظناً منا بأن فيه شفاء لأسقامنا. هلاً عرفت إن
الملكية التي جاؤا بها ما هي إلا جلباب دقيق على ما أرادوا من نهب أموالنا
وسلب ما في أيدينا. شركة قامت على دهليز الدكان واشترك صاحب الدكان
والسلطان في اكتساب الأموال الهائلة. هذا يتجر ويحصل المنافع الزائدة على مال
تجارته، وذلك يسيطر على وجود الناس ويطلب منهم الخراج. عجباً على هذا
التوافق والالتئام بين التجارة والحكومة، وفي الحقيقة إنهم يكيدون كيذا. يرفعون
أصواتهم عند بيع ما عندهم من الخزف، ونحن نسارع إليهم في رغبة وشوق،
مثل الأطفال الذين يسارعون إلى بائع الحلوى، وهم مطمئنون على ما عرفوا من
الأمانى المستترة في قلب المشتري. لو عرفت هذا فلا تشتتر منهم شيئاً مهما تراه
جميلاً واكتف ما عندك من المتاع مهما كان متواضعاً.

عرض في جناب الرسول ﷺ

إن هذه القطعة المباركة ما كانت في أول أمرها داخلية في صلب هذا
المثنوي، ولكن لما رأى الشاعر أن لهذا العرض ربط وثيق وعلاقة واضحة لهذا
المثنوي فالحقه به. وكان لهذا العرض قصة ذكرها الشاعر أنه قد ألم به المرض

المثنوي

فاشتد وطال فرأى في ليلة من الليالي وهو في بهو فال السيد أحمد خان رحمه الله يقول له أن ينظم أبياتا يتوسل بها إلى الرسول ﷺ^١ فقال الشاعر العظيم:

يا أيها الذي هو ملجأنا نحن الفقراء

كيف السبيل إلى نجاة المسلمين من خوف الموت؟

المسلمون كلهم أسارى ثقافة الغرب

فنحن قتلى بلا ضرب ولا حرب

إن خوف الموت شديد على الإنسان حتى إنه لو عرف وقت موته لمات في حينه، ولذلك أخفى الله تعالى - رحمة على عباده - وقت الأجل، وخوف الموت هو العائق الكبير في نيل الأمنيات العظيمة، لأن الموت يورث الجبن. والجبن يخلق في قلب صاحبه الفرار من الموت، وينبعث حب الدنيا وكرهية الموت من هذا الفرار، فلا يقتحم في عظام الأمور ولا يبقى بعد ذلك في قلبه الميل إلى تضحية نفسه وماله لنيل المقاصد الجليلة. ولم يبق في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ شيء من خوف الموت فأفنوا حياتهم لأجل نشر الإسلام وإعلاء كلمته.

يا أيها الذي هو ملجأنا وملاذنا، نريد الآن النجاة من خوف الموت فكيف السبيل إلى ذلك المرام.

يا رسول الله ! إنك جددت العالم ومحوت من العالم عبادة الأصنام. فما عبدنا غير الله يوماً من الأيام قط. فضلك علينا عميم، ففكري منقاد لك ومدين لإحسانك، أنت المنزل والمقام لكل سالك، يجد قلبه مملؤاً من حبك. وا أسفاه علي مات في قلبي ذلك الحب العميق الذي كنت أجده فيه نوعاً من السرور الذي كانت

^١ - سير سيد أحمد خان (١٨١٧-١٩٣٢) أعظم مصلحي المسلمين في الهند. أنشأ أول جامعة للمسلمين في هذه البلاد وشجع المسلمين ووجههم إلى الانتفاع بالعلوم الجديدة.

المتنوي

ترتفع منه الأناشيد. أسفاً على شباب هذه الأمة إنهم نشأوا في بيت المسلم الذي صار قلبه ميتاً في العبودية وحب الإفرنج، فنسي نفسه ولا يعرفها. شبابه ناعمٌ مثل الحرير ولكنه لا يفكر في العواقب والنتائج. إنه قد باع نفسه في عوض لقمةٍ من الرغيف، وا أسفاً عليه، طائر يحب القفص ولا يحب أن يطير في الفضاء بجناحيه. مات قلبه بين جنبيه ولم يعد واقفاً بالسر المخفي في 'لا غالب إلا الله'. الرجاء منك أن تمنح هذه الأمة الساقطة الهابطة مرةً أخرى العبودية الكاملة لله لتكون الأمة حرة من عبودية غير الله.

يا مَنْ طريقك المَبَجَّل ملجئي

قدجنت إليك بمطلب

يا رسول الله ! في نفسي آمالٌ وفي قلبي شوقٌ، لست أدري هل أقدر أن أعبر عما أجد في نفسي من الشوق. أرجو أن أبوح في جنابك بما في قلبي من الأمناني الكثيرة ولكن الأدب لا يسمح لي بأن أقول ما أريد. أرجو منك نظرةً لطفٍ وعنايةً وكرمٍ. وقدجنت ملتمساً إلى جنابك! لم يبق لي ما كنت أعتاده من الأناشيد، قد حبس الصوتُ في صدري من المرض الشديد. يا رسول الله، أتعبتني الآلام وأجهدتني الأسقام فحبس ذلك النشيد في صدري فلا أستطيع أن أرفع صوتي به، وقد ضعف ذلك الوجد الذي كنت أجده عند تلاوة القرآن. إنه قد ضاق صدري وإن قلبي لا يسع الدعاء المضطرب الذي لا يزال حبيساً في صدري والذي يحتاج إلى ظهوره فضاءً واسعاً يحيط به السماوات التسع. أنا لا أستطيع تحمّل هذه الأدوية المريرة، ذات الرائحة الكريهة، وليس شفاي في هذه الأدوية، فأرجو منك نظرةً لطفٍ وكرمٍ يشفي الله بوسيلتها ما أجد من المرض، كما شفي البوصيري بلطفك الكريم. فإن رحمتك على العباد المذنبين أعظم وعفوك عن الخطايا أشمل.

رأفتك بالعباد المذنبين أوسع وأعظم

رحيم أنت بالمؤمنين فتمحو عنهم خطاياهم كالأم الحنون

لا تحرمني عن ظلك الظليل فانت لي كالروح، والجسم إنما يستقيم بالروح.
قضيت عمري في فهم هذا الدين الذي جئت به، ولكنني وجدت الأرض قاحلة لا
تنبت، لأن الناس سحرت أعينهم ببريق الدنيا فكثرت إهتمامهم بها. وأنا أرجو أن
يتقبل الله دعائي بوسيلتك، فيعطيني الصحة والقوة والنشاط للجد والعمل فأكون
مؤمناً حقاً ولا يبقى الكل بعد ذلك في سفي، بل يصير أكثر حدةً وأشدَّ قطعاً.

لعمري، ليس عندي شيءٌ أستطيع أن أقدمه إلى جنابك يا رسول الله!،
سوى هذا القلب الحائر المضطرب الذي دخل حبك في سويدائه فلا يفارقه، فها أنا
أقدمه إليك. فاقبله واحفظه عن أعين الناس لأنه مليء بحبك وعلامة الحب لا تزال
باقية كما هي. يا أيها الذي أعطى الكرد^١ حب العرب.

أشعر من ألم الحب، وسبب هذا لألم الشديد قروحاً في قلبي، فصار قلبي
مثل اللالة التي يوجد فيها حمرة الدم من ألم قلبها. أنا أشكو كما يشكو الناي،
وأناشيد هذا الناي جعلتني مضطرباً^٢ وأأسفاه، رحلت القافلة ولم يبق في الصحراء
إلا قليلٌ من النار، وشيءٌ من الدخان الذي يدلُّ على أن الأحبة قد رحلوا من هذا
المكان. وأنا واقفٌ في الصحراء أشكو وأحنُّ وأبكي على فراق الأحبة.

^١ - إن رجلاً كردياً كان يحب الرسول صلى الله حياً شديداً فزار قبره وجعل يبكي ويقول:
'يا رسول الله أنا كردي و أنت عربي فأنا لا أحسن أن ألتمس في جنابك ما كنت
أتمناه' فنام تلك الليلة فلما أصبح صار يتكلم باللغة العربية، فقال: ' أمسيت كردياً
وأصبحت عربياً.'

^٢ - ولعل الرومي، كما ذكرنا من قبل، يريد أن يلمح بهذا التعبير إلى ما قاله بعض
الصوفية، أن من فطرة الإنسان أن يتجه إلى خالقه، فهو يحن إلى أصله بكاء الناي
وحنيه إلى أصله.

المثنوي

تعبير لطيف دقيق يريد الشاعر الإسلامي إقبال بهذه العبارة اللطيفة أن
قافلة الإسلام قد رحلت، وذلك لأن المسلمين في هذا الزمان ليسوا بمتصفين بتلك
الأوصاف الحميدة والأخلاق الكريمة والأعمال الرفيعة النبيلة التي كان المسلمون
الأوائل يتحلون بها، فهي أنا أشكو وأبكي وأحن على ما نالت الأمة من التقهقر
والزوال.

المصادر والمراجع

العربية

- الدكتور عارف كرخي أبو خضير والدكتور ساجد الرحمن الصديقي: ترجمة مثنوي إقبال فما ذا نعمل بعد يا أقوام الشرق، مكتبة الآداب، القاهرة. ذا محمد إقبال: هدية الحجاز، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م، القاهرة، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم.

- أبو الحسن علي الندوي: روائع إقبال، مجلس نشریات اسلام، كراتشي، ١٩٨٣م

الفارسية

محمد إقبال: کلیات إقبال، مطبعة غلام علي، لاهور، ١٩٨٥م
نسیم امروهوي: فرهنك إقبال، إظهار سنز، لاهور، ١٩٨٩م.

الأردية

محمد حنیف شاهد: مفكر باكستان، لاهور ١٩٩٧م
جاوید إقبال: زنده رود، لاهور، ١٩٨٧م
فرمان فتح بوري: إقبال للجميع، كراتشي، ١٩٧٨م
محمد يوسف سليم جشتي: شرح مثنوي بس جه باید كرد، لاهور.
فقير سيد وحيد الدين: أيام الفقير، لاهور، ١٩٨٧م.
آقاي مجتبی مینوي: علامة إقبال، بزم إقبال، لاهور.
شهزاد أحمد: التشكيل الجديد للإلهيات الإسلامية، لاهور.

Muhammad Iqbal: *The Reconstruction of Religious Thought in Islam*, Prince offset Printers, ١٩٨٤.

Ishrat Hasan: *The Metaphysics of Iqbal*, Sh. Muhammad Ashraf, ١٩٩١.

John Peck: *How to Study a Poet*, Palgrave, ١٩٨٨.

Abdul Mughni: *Iqbal the Poet*, Bazm-e-Iqbal, ١٩٩٢.

M. Ikram Chughtai: *Iqbal New Dimensions*, Lahore, ٢٠٠٢.